الآبار وملحقاتها في مصر العثمانية

د. خالد أبو الروس(*)

- **ملخص:**

كلمة بئر وردت في المعاجم بعدة معانٍ، فيقال أنه حفرة عميقة يستخرج منها الماء والجمع آبار وآبار وكذلك في آيات القرآن الكريم في أكثر من موضع في سورة الحج "**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**"، في إشارة واضحة من القرآن الكريم إلى مدى أهمية وقيمة الآبار، فقد أهلكت القرية وتعطل وخرب البئر وإفناء أهلها وهلاك وارديها فلا شارب منها، وهذا القصر المشيد بالصخور والجص قد خلا من سكانه لخلو الماء من البئر المعطل وتمت إبادتهم جميعاً بسوء أفعالهم. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب من نحو إحدى وعشرون بئر ودعا فيها بالبركة مثل بئر إريس لرجل يهودي في حديقة بالقرب من مسجد قباء والتي اشتراها عثمان بن عفان وما زالت باقية حتى الآن وتعد من أعذب آبار المدينة المنورة وبئر أنس بن مالك وبئر الأعوف.

والجدير بالذكر أن بدايات حفر الآبار قد بدأت على يد عمال صينيون خلال العصر الحجري الحديث يدوياً بهدف الوصول للمياه الجوفية بغرض الشرب، وكانت آبار مبطنة بجذوع الأشجار، ثم انتقلت الفكرة إلى باقي شعوب العالم وعلى طول الطرق بين البلاد كما في بلاد الشام والجزيرة العربية بين مكة والمدينة ومصر. ويذكر ابن إياس أن السلطان الغوري – أحد سلاطين دولة المماليك البرجية – قد حفر الآبار على طول طريق الحج بين العقبة ومصر. وكذلك السلطان العثماني سليم الأول كلف بعض رجاله في شهر شعبان 923هـ /1517م بإصلاح الآبار بين مصر وطريق غزة.

وقد شملت الدراسة مكونات الآبار وملحقاتها من أحواض وسواقى وصهاريج، بجانب صيانتها وترميمها، كما ألقت الضوء على فئات المهمشين ومدى صلتهم الوثيقة بالآبار وعمارتها.

الكلمات المفتاحية: الآبار، الحقبة العثمانية، علوفية، المهمشون، السواقى السلطانية

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

- **Abstract:**

The word well has been mentioned in dictionaries with several meanings. It is said that it is a deep hole from which water is extracted. The plural is wells and wells. It is also mentioned in the verses of the Holy Quran in more than one place in Surat Al-Hajj: “How many a town have We destroyed while it was doing wrong, so it lies in ruins, upon its roofs, and a well that has been abandoned, and a lofty palace.” In a clear reference from the Holy Quran to the importance and value of wells, the town was destroyed, the well was abandoned and ruined, and its people were wiped out, and those who came to it perished, with no one to drink from it. This palace built of rocks and plaster was emptied of its inhabitants because of the lack of water in the abandoned well, and they were all exterminated due to their evil deeds. It was narrated that the Prophet, may God bless him and grant him peace, drank from about twenty-one wells and prayed for blessings in them, such as the well of Aris, owned by a Jewish man in a garden near the Quba Mosque, which was bought by Uthman ibn Affan and still exists today. It is considered one of the sweetest wells in Medina, as well as the well of Anas ibn Malik and the well of Al-Auf. It is worth noting that the beginnings of digging wells began at the hands of Chinese workers during the Neolithic era manually with the aim of reaching groundwater for drinking purposes. The wells were lined with tree trunks, and then the idea spread to the rest of the peoples of the world and along the roads between countries, such as in the Levant and the Arabian Peninsula between Mecca, Medina and Egypt. Ibn Iyas mentions that Sultan Al-Ghouri - one of the sultans of the Burji Mamluk state - dug wells along the Hajj road between Aqaba and Egypt. Likewise, the Ottoman Sultan Selim I assigned some of his men in the month of Sha'ban 923 AH / 1517 AD to repair the wells between Egypt and the Gaza road .

The study included the components of the wells and their accessories, including basins, waterways, and tanks, in addition to their maintenance and restoration. It also shed light on the marginalized groups and the extent of their close connection to the wells and their architecture.

Keywords: Wells, Ottoman era, Alofiya, Al-Mhamashun, Al-Sawaqiy Al-Sultaniya

- **مقدمة:**

الماء حياة البشر وجميع المخلوقات بنص القرآن الكريم " **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**" سورة الأنبياء– الآية 30، وهذه حقيقة علمية قد توصل إليها علم الأحياء وعلم الكيمياء الحيوية وعلم وظائف الأعضاء حديثاً، وليست مجرد ملاحظة لاحظها الناس قديماً. بل أن الماء هو العامل الحاسم في تلوين الجبال التي تأخذ ألوانها من ألوان معادنها التي تشترك في بنيتها والمعادن تتلون بقدر أكسدتها، حيث أن له علاقة بهذه الأكسدة، لذلك نجد أن أحد عوامل تلوينها واختلاف ألوانها من جبال كالغرانيت السود، وجبال جدد بيض وحمرمختلف ألوانها يعود ذلك كله إلى الماء.

من هذا المنطلق جاءت أهمية البحث الذي يتناول رئة هامة ومصدراً للمياه ألا وهو " الآبار " كمصدر جوفي هام للمياه سواء كانت آبار ارتوازية تم حفرها للحصول على المياه، أو آبار حفرت خصيصاً كمخزن للمياه كما سنرى ، وما يرتبط بها في الفترة العثمانية وهي الفترة المعنية بالدراسة.

هذا من جانب أول، ثم جاء التركيز على الآبار في العصر العثماني لما تمثله من أهمية قصوى كمصدر للمياه وسكان مصر هذا من جانب ثان. كذلك أفرزت الآبار عناصر اجتماعية هامة ظل الكثيرون يعتبرونهم من المهمشون مثل السقايين والمكاريون "الحمارين" قد لعبوا دوراً بارزاً في أروقة المجتمع كفئات اجتماعية أثبتت ثقلها ودورها في وقتٍ ظل الكثيرون يعتبرونهم في ذيل التاريخ، لذا وصفوهم بالمهمشون، فكيف ظهرت هذه الفئات بطريقة لامعة في معرض الحديث عن الآبار والمهمشون وما تقدمه من خدمات للمجتمع؟ وما الأسباب التي جعلت هذه الفئات تتبوأ هذه المكانة وهذا الثقل؟ وهل كانت جميع الآبار مصدراً للمياه؟ أم أن لها استخدامات أخرى؟

هذه جملة من التساؤلات الهامة، ربما تأتي الإجابة عليها في الصفحات التالية من الدراسة لتوضح بعض القضايا الشائكة التي تثار داخل المتن.

أولاً: شبكة الآبار: أنواعها – انتشارها واستخدامها – تعميرها

انتشرت الآبار في ربوع مصر في العصر العثماني بشكل كبير وملحوظ للعام والخاص، وقد حظيت القاهرة بوصفها العاصمة على النصيب الأكبر من عدد الآبار واكتظاظها بالسكان، وهو ما دفع الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار مصر في القرن السابع عشر إلى القول بأنه "عندما أجرى إحصاء عام لجميع ما بالقاهرة من العمارات والحوانيت التي بالسوق السلطانية أيام ولاية بيرم باش – والي على مصر بين عامي 1626 / 1628 – في عهد السلطان العثماني مراد الرابع – 1640/1623 م – وجد274 ألف بئر بالقاهرة، لأن كثير من قصور ووزراء السلاطين السابقين وأشراف القاهرة وأعيانها وأثريائها كانت تحتوي على خمسة أو ستة آبار، ولا يخلو بيت من بئر، وكذلك في كل مسجد وخان وعمارة ومدرسة وحوش[1].

وتذكر حفريات الفسطاط وجود كم هائل من الآبار التي تم حفرها للحصول على مياه الشرب سواء في الأماكن العامة بالشوارع والدروب أو داخل البيوت، فالبيوت كانت تحوي آباراً كثيرة رغم أن هذه المنطقة كانت كتلة صخرية عظيمة تمثل عقبة أمام حفر الآبار[2]. وضم منزل الشيخ محمد الحويوي بخط فم الخليج بمصر القديمة بئراً للحصول على مياه الشرب، وفي المنطقة ذاتها تذكر الوثائق وجود بئراً يتصل به حوض كبير لتخزين مياه البئر، وكذلك ساقية خشب تم تركيبها على فوة البئر لرفع المياه منه تجرها الثيران سواء ثيران الجاموس أو البقر، وبجواره سبيل يتغذى على مياه البئر أيضاً، لكن يعاب على هذا البئر أنه يفتقد لوجود سياج "سور" حول فوهته بما يمثل ذلك خطراً على الأهالي والمارة، بجانب أن السبيل والحوض الملحقان بالبئر حالتهما غير جيدة حتى صارا لا يصلحان[3].

([1]) اوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ترجمة محمد علي عوني، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003م، ص 376.

([2]) علي بهجت وألبير جبريل: حفريات الفسطاط، دار الكتب المصرية، القاهرة ، 1928م ، ص39.

([3]) محكمة مصر القديمة: س101 ، م209 ، ص 153 – كذلك انظر : محكمة مصر القديمة: س103 ، م249 ، ص105 .

من هنا كانت الإدارة العثمانية تولي اهتماماً ملحوظاً بتعمير وصيانة الآبار على إختلاف أنواعها. فقد صدر بيورلدى " أمر شريف من الإدارة العثمانية" في 9 صفر 1019هـ/ 1607م إلى الصوباشي "القاضي" بمصر القديمة الزيني حسين بضرورة تعمير جميع الأماكن المتهدمة والخراب سواء آبار أو منازل أو غيرها[4]. وقد وضح ذلك على حالة البئر الذي تم تجديده في منزل أحمد بن محمد المناواتي – كان يعمل قصاب في جزارة اللحم الضاني – بالحارة المستجدة بخط دار النحاس، وكذلك البئران في وقف ابي السعود الجارحي داخل معصرة حمام جمدار بمصر القديمة أيضاً[5].

وحظيت بيوت العسكر في جميع نواحي مصر سواء الوجه القبلي أو البحري بكثرة الآبار بجانب أحياء القاهرة ومصر القديمة وبولاق، وأقام عامة الجند في الأحياء الشعبية، بينما تركز كبار الأغوات في الأحياء الأرستقراطية حول البرك وعلى جانبي الخليج المصري، وتزينت هذه البيوت بأشجار الفاكهة المختلفة التي كانت تروى بمياه هذه الآبار الجوفية، وأجياناً يعتمدون عليها في مياه الشرب وقت تعذر وصول السقائين نتيجة انخفاض مياه النيل وقت التحاريق و الجفاف[6].

وانتشرت الآبار في أماكن أخرى خارج البيوت في مناطق العمران والحضر، فتم العثور على وثيقة مؤرخة في جمادي الثاني عام 1136هـ/1725م تؤكد وجود بئر مياه عذبه داخل حوش بمنطقة قوصون داخل درب الأغوات[7]. وبئر أخرى في نفس المنطقة بخط حدرة البقر قرب جامع الماس ومدرسة خاير بك، هذا البئر كان يخدم

([4]) محكمة مصر القديمة : س98 ، م 565 ، ص163 .

([5]) دشت 143 لسنة 1034 هـ/1622م ، ص18 – كذلك انظر : محكمة مصر القديمة : س98 ، م1945 ، ص 509.

([6]) عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني في مصر في القرنين 16،17 ، ط1، 1996م، ص311.

([7]) محكمة قوصون: س290 ، م340 ، ص 139 .

حوش الأمير عبد الله من عتقاء الأمير أيوب أغا، وكذلك اسطبل خيول ملك هؤلاء الأمراء تشرب منه الحيوانات والدواب[8].

كما رصدت وثائق المحكمة الشرعية بئراً مبنياً بالحجر الأحمر، وفي حالة جيدة داخل حوش ضمن أملاك وقف زين الدين عمر الوفائي من كتبة العنبر الشريف وشونة الغلال بمصر القديمة، وقد وجد هذا البئر بمنطقة حمام جمدار بمصر القديمة، كان سكان الحوش وكذلك عدة أروقة تابعة له تعتمد على مياهه[9]. وهناك العديد من النماذج للآبار التابعة للأوقاف الخيرية لدرجة أن منطقة بأكملها في صعيد مصر وبالتحديد مدينة أخميم، أطلق عليها "آبار الوقف" ووردت بهذا الاسم في دفاتر الروزنامة والترابيع العثمانية منذ سنة 933هـ / 1527م[10]. وفي منطقة الأزبكية الشهيرة انتشرت الآبار حيث منازل الطبقة الأرستقراطية وكبار الأمراء وعساكر الدولة العثمانية والأمراء المماليك ممن راقت لهم الإقامة حول ضفاف البركة وأشجار الفاكهة المختلفة والطبيعة الجميلة الخلابة، وأشهرها بئر المياه العذبة داخل منزل بدرب باب الهوى بالأزبكية كان ملكاً لتجار من خط الصاغة قد تملكوه بموجب حجة مؤرخة من الديوان العالي في رمضان عام 1137هـ/1726م، هذا البئر كان يخدم عدة عقارات ملك هؤلاء التجار شملت طاحون، وحوش كبير ومطبخ أول ومطبخ ثانٍ يعتمدان إعتماداً كلياً على المياه المستخرجة من البئر[11].

([8]) محكمة قوصون: س304 ، م93 ، ص35 – وكلمة اسطبل في الأصل كلمة إغريقية، تكتب بالسين وأحياناً بالصاد، والإسطبل يعد أساساً من ملحقات قصور سلاطين المماليك وبيوت الأمراء واللأجناد المماليك "عصر الفروسية". والاسطبل في الأساس موقف الخيل، ومن ملحقاته بئر ماء لسقي الخيول، متبن "مخزن للتبن وعلف الخيول" وحوض و مرحاض ومغسل للخيول – للمزيد انظر: محمد محمد أمين: المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (648–923هـ / 1250–1517م)، دار النشر بالجامعة الأمريكية، ط1، 1990م، ص 13.

([9]) محكمة مصر القديمة : س105 ، م1116 ، ص 357 ، ص 358 .

([10]) تعد مدينة أخميم من أقدم المدن المصرية الفرعونية نسبة للاله مين إله الخصوبة ل إله الفلاحه واشتق اسمها العربي أخميم من الاسم القبطي khmim – انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج4، 1994م ، ص89 ، ص91 .

([11]) الديوان العالي وثيقة رقم (447) مؤرخة في 8 رمضان 1137هـ / 1726م .

ولقيت منطقة القلعة " ميدان الرميلة قديماً" والمقطم، اهتماماً كبيراً بحفر الآبار لتوفير المياه، فيذكر أوليا جلبي بئر عميقة منحوتة في الصخور الوعرة قرب جامع السلطان المملوكي قايتباي تحت القلعة خارج حصن الإنكشارية شمالاً، وعلى سفح جبل الجيوشي " نسبة ليوش بدر الجمالي"(*) عثر على بئر تسمى بئر أفناي لا نعلم بالتحديد من قام بحفرها، حيث رويت أساطير حولها فيقال أنها حفرت على يد هاروت وماروت حينما نزلا من السماء وما واكبه من ظهور علم النجوم والكواكب والسحر، لكن هذه البئر لا تزال موجودة ولكنها جافة، واقتصر نفعها فقط على رصد الكواكب والنجوم[12]. وقد أكد المقريزي منذ زمن إنتشار الآبار في منطقة القلعة وبركة الحبش والقرافه مثل بئر الغنم و بئر الدرج – نسبة لسلم الدرج بداخله – وبئر مرحنا "دير الطين" وبئر الزقاق وهي بئر مربعة الشكل كان يسقى منها البقر والغنم[13].

وفي منطقة إسنا بصعيد مصر إنتشرت الآبار بها لاسيما في جنوبها ومنطقة البتارسي "إحدى ضواحي إسنا" مثل بئر ساعي الدين بأقصى جنوب إسنا[14]. هذه الآبار كانت تعلق على فوهتها السواقي التي تجرخا الثيران لرفع المياه، بخلاف السواقي التي تعلق على الترع أو على النيل مباشرة، وأشهر سواقي سلطان سليم بمنطقة البتارسي[15].

وقد تعددت أنواع الآبار، فمنها الآبار الخاصة بمياه الشرب ذات المياه العذبة، والآبار الملحية التي تستخدم مياهها فقط في الاستخدامات اليومية، وهناك آبار حفرت

(*) هو أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، كان مملوكاً أرميني الأصل اشتراه جمال الدولة بن عماد ولذلك عرف بالجمالي، ترقى في الخدمة حتى تولى إمارة دمشق سنة 455هـ/1062م خلال عهد المستنصر– انظر: اوليا جلبي: المصدر السابق، ص366.

(12) اوليا جلبي : المصدر السابق ، ص 367 .

(13) المقريزي: الخطط المقريزية ، ج4 ، مكتبة الأداب ، 1996م ، ص 342 ، 343 .

(14) محكمة إسنا: س 10 ، م 197 ، ص 144 .

(15) محكمة إسنا: س39 ، م 190 ، ص 56.

لأغراض أخرى كمراحيض للتخلص من مياه الصرف الصحي تتصل بها مجاري تصافي المياه المنزلية، هذه الآبار صممت خصيصاً لهذا الغرض، وتم عمل مجارير تصل بين هذه الآبار " آبار المراحيض" على حافة الشوارع والدروب لتخدم جميع المنازل للتخلص من مياه الصرف الصحي والمياه الزائدة عن حاجة الإستخدام، وانتشرت هذه الآبار بطول الشوارع وعرضها، فقد سجل بعضها أقصى اتساع له ستة أمتار وأقلها إتساعاً سجل متراً ونصف والتي أطلق عليها خوخه أو زقاق ضيق أو حارة صغيرة[16].

والملاحظ أن معظم الآبار التي تم حفرها آبار ملحية، ظهر ذلك واضحاً عندما تم تقدير وحصر عدد الآبار في القاهرة وبولاق ومصر القديمة في مستهل القرن السابع عشر، فماء أكثر من ألفين بئر مياهها ملحية، ما عدا بئر حمام القيصوني وسبع آبار أخرى فقط في هذه المنطقة صالحة للشرب، وهو ما جعل رحاله مثل أوليا جلبي يتعجب أن تقع مدينة على شاطئ النيل العذب وتكون آبارها ملحية[17]. ربما يعود ذلك إلى نوع التربة ونسبة الملوحة بها مما يؤثر قطعاً على المياه الجوفية حول البئر.

ثانياً: ملحقات الآبار :

عندما ننوه على الآبار من وجهة النظر المعمارية، فإننا نجد أن عمارة البئر بوجه عام تعتمد على الطوب الأحمر أو الحجر المنحوت المهذب، وكان يقسم البئر إلى ثلاث طبقات الطبقة الأولى في قاع البئر على أعماق متفاوتة وليست ثابتة حسب الوصول إلى المياه الجوفي، هذه الطبقة تضم دواليب لنزج المياه، ثم تصب في حوض محفور في الصخر، ثم ترفع إلى الطبقة الثالثة بدواليب أخرى تديرها أربعة أزواج من ثيران البقر ويصب في الحوض الأساسي الذي توزع منه المياه إلى أغراضها واستخداماتها المختلفة[18].

(16) علي بهجت وألبير جبريل : المرجع السابق ، ص 36 ، 37 .

([17]) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص 259 .

([18]) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص 257 .

وهو ما تؤكده وثائق المحكمة الشرعية من أن هذه الأحواض مبنية بالأحجار كجزء أصيل من مكونات البئر بعضها خصص لأغراض معينة مثل الحوض الحجر بخط جامع الحسنات بمصر القديمة، والذي بني بغرض سقي الدواب في النصف الثاني من القرن السادس عشر وبالتحديد سنة 980 هـ / 1573م[19].

وانتشرت هذه الأحواض في أكثر من موضع بالنسبة للبئر، فمعظم الأحواض التي –ذكرت أنفاً– تقع داخل البئر حتى تتجمع فيها المياه من أسفل وهي أحواض صغيرة تشبه الدواليب، لكن الأحواض التي تقع خارج البئر هي أحواض طويلة على رؤوس الحارات وبعض العطفات والشوارع يسقي الناس منها خيولهم وجمالهم وحميرهم ولكل حوض ساقية يظلها سقف منقوش مزخرف ترتكز على أعمدة رشقيه، تجر الساقية الماء من بئر بداخلها ثم تصب في الحوض بواسطة حليات مصنوعة بأشكال الحيوانات[20]. ويسجل جومار إعجابه بهذه الأحواض، فيرى:(أنها لا تقل نفعاً للمواطنين عن الأسيلة، يسقون منها الخيل والحمير والجمال، وهي أيضاً مدعمة بأعمدة ومبانٍ فخمة)[21].

أما السواقي فقد انتشرت بوجهٍ عام في جميع نواحٍ مصر، وسواقي الآبار التي تركب على فوهة البئر تعد من أهم ملحقاته، إذ بدونها لم نتمكن من رفع المياه من قاع البئر وقد حظيت القاهرة بالنصيب الأكبر من عدد السواقي كونها العاصمة التي شهدت أكبر تركز سكاني على مر العصور، فتشير التقديرات أن بها نحو 9200 ساقية خشب، حيث أن أغلب السواقي كانت تصنع من الخشب لتكون خفيفة حين تجرها الثيران[22].

ويطلق جيرار على هذه السواقي (العجلات ذات القواديس) أو "الماكينة ذات القواديس" تجرها ثيران من الجاموس أو البقر لتخرج المياه من خزان البئر ورفعها إلى

([19]) محكمة مصر القديمة : س 94 ، م 726 ، ص 158 .

([20]) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص 367 .

([21]) جومار: وصف مصر " مدينة القاهرة وقلعة الجبل " ترجمة وتقديم ايمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988م ، ص 85 .

([22]) محكمة مصر القديمة : س 101 ، م 65 ، ص 27 .

مستوى الأرض في مدار ثابت دائري تسير فيه هذه الثيران خاصة ثيران الجاموس في الفيوم، وتباع في هذه المنطقة بـ 50 أو 60 بوطاقة لكل ثور من الجاموس[23]. وفي سوق دار النحاس بمصر القديمة سجلت الوثائق بيع 11 رأس من الجاموس والبقر ذات اللون الأبيض والأسود والأصفر نظير مبلغ قدره 86 دينار من الذهبي الشريفي "كل دينار يساوي 50 نصف فضة"، وقد تمت هذه الصفقة في 15 ربيع الثاني 1020هـ/1608م[24].

وكانت عملية صناعة و نجارة السواقي تخص طائفة خاصة بهم "طائفة نجاري السواقي" وهي الطائفة المكلفة بصناعة السواقي السلطانية من الأخشاب – كما سبق الذكر– وخضعت لإشراف شيخ الطائفة، وبطبيعة الحال خضعت الطائفة برمتها لأمين عام السواقي السلطانية والمشرف العام عليها من قبل الأوجاقات العثمانية، فقد تولى الأمير محمد جوريجي طائفة مستحفظان أمانة السواقي السلطانية في شهر محرم 1085هـ/1675 م[25].

ومن ملحقات الآبار أيضاً الصهاريج وهي خزانات المياه السطحية – فوق سطح الأرض – بعدما ترفع إليها المياه من الآبار بواسطة السواقي السلطانيه – سبق التعرف بها – ثم توزع المياه بواسطة "بائعو المياه بالتجزئة في الشوارع" وطائفة سقائي مياه الصهاريج في منطقة باب زويلة بوسط القاهرة، وطائفة سقائي المياه المالحة التي تستخدم في أغراض النظافة[26]. وفي حي قوصون عثر على صهريج ضمن أوقاف زليخة خاتون ابنة سليمان أفندي قاضي بلبيس بالشرقية[27]. وكذلك صهريج درب الهوى بفرشوط في صعيد مصر ضمن ممتلكات شيخ العرب همام[28].

([23]) جيرار: وصف مصر، ج4، ترجمة ظهير الشايب، مكتبة الأسرة، 2002 م ، ص 21 ، 105.

([24]) محكمة مصر القديمة : س 98 ، م 1272 ، ص 353 .

([25]) محكمة مصر القديمة : س104 ، م 1076 ، ص 974 .

([26]) أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات و النشر ، القاهرة ، ط1 ، 1994م ، ص 218 .

([27]) محكمة قوصون : س 285 ، م 2156 ، ص 715 .

([28]) محكمة إسنا : س 4 ، م 65 ، ص 22 .

وانتشرت الصهاريج السلطانية بمدينة الاسكندرية بشكل كبير سواء صهاريج المنازل أو الأسبلة والجوامع والبساتين، وكانت صهاريج البساتين بوجه خاص توجد على الجوانب والأطراف من البستان به مجموعة من الآبار الصغيرة المتصلة بالقنوات الصغيرة داخل البستان، وبعد رفع المياه من الصهريج والآبار المجاورة تتجمع المياه في فسقية "مكان تجمع المياه" ثم توزع على أنحاء البستان[29].

وتذكر حجة وقف الجمالي محمد عبد الله والمؤرخة في 18 رجب 1007هـ/1511م وجود صهريجاً كبيراً ضمن ممتلكات الوقف، حظي باهتمام كبير من حيث عملية ملئ الصهريج وتنظيفه وصيانته وغسله من الداخل حتى تكون دائماً مياهه نظيفة صالحة للشرب[30].

ثالثاً: الإدارة العثمانية وصيانة الآبار :

حرصت الإدارة العثمانية على حفر الآبار وصيانتها وترميمها بشكلٍ كبير منذ أن وطأت أقدامهم أرض مصر – كما سبق الذكر – فعند بلوغ القوات العثمانية مدينة الاسكندرية في جمادي الأول عام 923هـ/1517م وجدوا كثرة من الآبار والصهاريج ممتلئة بالمياه، ومن شدة تهافت الناس علي بيع الكراز الواحد "قدر الماء" بنحو خمسة أنصاف من الفضة[31]. وقام الوالي العثماني خاير بك بملئ الصهاريج الكبرى في منطقة باب السلسلة، وكذلك عدة صهاريج أخرى بقلعة الجبل في مستهل ذي الحجة من عام 926هـ/1519م[32].

في حين قام الوالي ابي النور محمد باشا (1063–1066هـ/1652–1653م) بعدة إنشاءات في خط الخليفة بالقرب من مسجد السيدة سكينة، شملت هذه الإنشاءات

([29]) أيمن أحمد محمد محمود: خليج الاسكندرية وآثاره الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في العصر العثماني، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2008م، ص 88.

([30]) دار الوثائق القومية: حجة وقف الجمالي محمد عبد الله رقم 303 بتاريخ 18 رجب 1007هـ .

([31]) إبن إياس : المصدر السابق ، ص 185 .

([32]) نفس المصدر : ص 374 .

مسجداً ومدرسة للتدريب على الحديث الشريف وكُتاباً (مكتب) لتحفيظ القرآن الكريم، ولخدمة هذه الإنشاءات أمر ببناء صهريجاً للماء يعتمد على بئر جوفي أسفل منه[33].

كما قررت الإدارة عدة إنفاقات ورواتب لصيانة الآبار وحمايتها وصروف علوفيات لأثوار السواقي المعلقة على الآبار، وكانت هذه الرواتب تقع على عاتق البكوات أو الكشاف حكام الولايات طبقاً للوائح السلطانية وحكومة القاهرة، مستقلة عن الميري المفروض على رواتبهم، وتدفع هذه الإنفاقات لصالح الآبار من عوائد الأرض التي تجبى من الملتزمين، وتمثلت هذه الرواتب في صيانة الآبار وموظفيها، ولبئر يوسف أفندي بالقلعة نحو 3.100 مديني، ولتطهير الآبار الواقعة على الطريق 23.562 مديني، وثمن خيمة لتغطية الحواض الذي تؤخذ منه المياه 13.659 مديني[34].

أما علوفية اثوار السواقي السلطانية "وهى علوفية تضم تبن وعلف أخضر كان يصرف من شون غلال الدولة لصالح أثوار السواقى التي يتم تركيبها على فوهة البئر" – سبق التعرف عليها – كانت تصرف طبقاً لدفاتر الروزنامة "دفاتر مالية سجلت بخط القيرمه" ومنها دفاتر الجراية والعليقة ودفاتر أمين السواقي السلطانية والتذاكر الديوانية التي تخرج من شونة الغلال وسجلات القسمة العسكرية.

فموجب تذكرة ديوانية خرجت من سجلات القسمة العسكرية على يد سليمان أفندي القسام العسكري آنذاك في 16 شعبان 1059هـ/1649م تم صرف 20160 نصف فضة قيمة علوفية لأثوار السواقي[35].

وسجلت دفاتر أمين السواقي السلطانية آنذاك الأمير سليمان قبل ولاية الأمير محمد جوربجي، فجاءت شحنة ضخمة من التبن "علف الحيوانات" كالتزام للأمير من جهة طائفة التبانة المتعهدين سداد ما عليهم من رسوم لجهة اثوار السواقي، فشملت الشحنة

([33]) يوسف بن الوكيل الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، 1998، ص188.

([34]) استيف: وصف مصر ، ج5 ، مكتبة الاسرة 2002، ص 235–258 .

([35]) القسمة العسكرية : س56 ، م130 ، ص88

حمولة 1650 جمل، وقدرت بنحو ثمانية عشر ألف وخمسمائة وخمسون نصف فضة[36]. وكان الأمراء يدفعون ثمن نقل هذه الشحن لطائفة التبانة ويتم تسجيل هذه المبالغ في دفتر محضر السواقي أو المباشر، فعندما نقل مجموعة من طائفة التبانة وهم طعيمة بن منيسي وعلي بن عبد الجواد الكومي ومكي بن ضيف، شحنة كبيرة من التبن لأثوار السواقي السلطانية، دفع لهم الأمير سليمان – أمين السواقي – أجرة النقل، فحصل طعيمة بن منيسي على 800 نصف فضة، ومكي بن ضيف 600 نصف فضة، علي الكومي 600 نصف فضة، وتم تسجيل ذلك بدفتر المباشر بالسواقي السلطانية في 12 محرم 1078هـ/1667م[37].

وقدر علماء الحملة الفرنسية تبن للثيران المستخدمة في الآبار، وخاصة بئرا النخل والعجرود بنحو 10.928 مديني[38]. في حين قدرت دفاتر الروزنامة الأموال التي خرجت من الخزينة العامرة عام 1111هـ/ 1699م لصالح علف أثوار السواقي، فجاءت نحو عشرة آلاف باره[39].

كل هذه التدابير من جانب الإدارة العثمانية لضمان صلاحية الآبار وعمارتها حتى تكون في أي وقتٍ صالحة للإستخدام وتوفير المياه اللازمة للأغراض المتعددة، إذ ربما إهمال هذه الآبار لا ينضوي فقط على خراب الآبار وما ينجم عنه من وقوع المجاعات بسبب قلة المياه وهلاك الزرع. بل أيضاً إهمال الآبار وعدم صيانتها يتسبب في وقوع جرائم مثل حالة المرأة التي وقعت في بشر الساقية بمنطقة فم الخليج بمصر القديمة فماتت بسبب عدم وجود سياج "سور" حول البئر فسقطت فيه أثناء مرورها بجواره[40].

([36]) محكمة مصر القديمة: س102 ، م 455 ، ص 165 .

([37]) محكمة مصر القديمة : س103 ، م445 ، ص179 .

([38]) استيف: المصدر السابق ، ص 235 .

([39]) دار الوثائق القومية: دفتر مال وارد الخزينة العامرة من أقلام سنة 1111 هـ ، روزنامة 2111 ، رقم الحفظ السنوي 6 ، مخزن تركي 1 عين 29 .

([40]) محكمة مصر القديمة: س101 ، م 209 ، ص 153 .

وثمة أمر هام آخر وضعته الإدارة نصب أعينها لعمارة وصيانة هذه الآبار وضمان وصول مياه الشرب للأهالي، نعني وسيلة نقل العلوفيات لسواقي الآبار أو نقل المياه من الآبار إلى السكان، وقد وقع هاتان الأمران على فئتين هامتين في المجتمع وهما السقائين والحمارين "المكاريون". ورغم قيمة هذه الفئة في المجتمع ومدى حساسية وجودها ووضعها، لكن البعض يصنفهم ضمن الطبقات الدنيا أو المهمشون في المجتمع.

رابعاً: الآبار والمهمشون:

فئة السقائين والحمارين أو المهمشون كما يسميهم الكثيرين من أهم عناصر المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالآبار، رغم النظرة الدونية والتصنيف المجحف لهم. ففي الحِقبة العثمانية احتلت هذه الفئة مكانة هامة احتلتها نظراً لمدى قيمة وأهمية الوظيفة التي تؤديها، ومدى حساسيتها للمجتمع الذي تعيش فيه. فالسقائين أو السقايين كانوا ينقلون المياه في "القربة" أو "الروية" وهي قطعة جلد من الحيوان تصنع في منقطة باب زويلة وبالتحديد في حي القربية "صناع القراب". وأحياناً ينقلون المياه في جرار فخارية صنعت بحي الأزبكية، وأحياناً كانت تأتي من خارج القاهرة[41].

وانتشر السقائون في أحياء القاهرة المختلفة وجميع أنحاء البلاد، في حي باب اللوق وباب البحر، وقناطر السباع "السيدة زينب حالياً" فكان سقا القربة يتجول في القاهرة لتوزيع المياه على ظهره للمنازل مثل حالة شاهين بن محمد شاهين السقا[42]. أما موسى بن عبد السلام امبابي سقا القربة أيضاً كان يبيع المياه للمقاهي في خط ميدان الغله عام 1033هـ/1623م[43]. وكان ثمن القربة أو الروية يرتفع أحياناً نتيجة حدوث أزمات أو صراعات سياسية، فيذكر إبن إياس أن السلطان سليم الأول عندما نزل

([41]) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 1974 ، ص 104.

([42]) سجلات الدشت : رقم 151 لسنة 1043 هـ ، ص 283 .

([43]) محكمة الزاهد : س669 ، م2025 ، ص 528 .

بعساكره إلى بركة الحبش بالقاهرة وجمع الكثير من السقايين بقرابهم ورواياهم وجمالهم حتى يسافروا معه إلى الصعيد لمحاربة السلطان المملوكي طومان باي قبل أن يهرب إلى بلاد الزنج، أدى ذلك إلى ارتفاع ثمن روايه أو قربة الماء إلى أربعة أنصاف وقيل خمسة أنصاف من الفضة[44].

وقد استخدم السقائون الحيوانات أحياناً كثيرة لنقل وحمل قراب المياه سواء الجمال أو الحمير، لذا أصبحت طائفة الحمارين "المكاريين" بوجهه خاص قاسما مشتركا مع السقايين لتوفير المياه اللازمة. وهم الضلع الثاني من المهمشون – كما ذكرنا انفاً – حيث شكلت الحمير أهم وسيلة للنقل داخل وخارج القاهرة، لذا انتشرت أسواق الحمير في العديد من أحياء العاصمة، فتذكر الوثائق سوق للحمير في حي الرمليه بالقلعة[45]. وشيخ طائفة الحمارين صالح بن قميحة بدار النحاس بمصر القديمة[46].

وفي صعيد مصر انتشرت تربية الحمير والجمال كوسيلة هامة لنقل مياه الآبار، وكذلك أسواق ووكائل الحمير، فقد أكدت وثائق المحاكم الشرعية وجود "وكالة الحمير" بجوار سوق البياعة في الجهة البحرية من مدينة إسنا[47]. ورغم وجود الحمير في هذه المناطق إلا أنها كانت تستبدل بالجمال التي جلبت من سنار ودارفور بالسودان إلى أسواق إسنا خاصة سوق البياعة – سبقت الإشارة إليه – وسوق المواشي وسوق الأحد، ووصل ثمن الجمل في بعض الأوقات داخل هذه الأسواق بنحو 13 ريال ذهب، وأحياناً 16 و18 ريال ذهب[48].

وقد أبدى الكثير من الرحالة اعجابهم الشديد بالحمير من حيث أهميتها ووظيفتها الدقيقة يقبل عليها الأغنياء والفقراء على حد سواء. فيرى الرحالة الفرنسي بيلون

([44]) ابن إياس : المصدر السابق ، ص 198

([45]) محكمة قولون: س210 ، م 25 ، ص 11 .

([46]) محكمة مصر القديمة : س100 ، م436 ، ص 215 .

([47]) محكمة إسنا: س50 ، م32 ، ص92.

([48]) محكمة إسنا: س1 ، م23 ، ص16 .

Belon أن الأغنياء لا يعتبرون ركوب الحمير شيء مشين فيقول: لم يكن من المشين بالنسبة للأهالي أو الأجانب أن يتنقلوا فوق ظهور الحمير دون أن يشعروا بأي خجل[49]. بينما يقول جان باليرم Jean Palerme أحد الرحالة الأوربيين الذي زار القاهرة عام 1581م، إن الحمير هنا أدت نفس الوظيفة التي أدتها جندولات "قوارب طويلة" البندقية[50].

ويتفق أوليا جلبي مع جان باليرم في وصف الحمير كالقوارب عندما عقد مقارنة بين القاهرة واسنطبول، فيرى "أن الحمير في القاهرة أشبه بالقوارب في اسطنبول أي أنها وسيلة الإنتقال الشعبية، وأيضاً أعيان مصر وأشرافها ونسائها يركبون الحمير في أحياء المدينة من الأزبكية، والصالحية ومصر القديمة وبولاق وقايتباي[51]. ويعود فيقول: أنه لا تزال جمال وحمير كثيرة لا تعد ولا تحصى يستخدمها السقائين في مصر في الشوارع بحيث لا يستطيع المرء أن يمر أو يسير في هذه الشوارع بسهولة وسلام من كثرتها[52].

من هنا ظهر التلازم الشديد بين طائفتي السقائين والحمارين بشكل جعلنا في مواضع كثيره اعتبار أنهم طائفة واحدة، حيث أن كل سقا لابد له أن يمتلك جمالاً أو حميراً لنقل المياه على ظهورها. ومن شدة فرط أهمية هذه الطائفة الدور الفاعل الحساس في فترة الإضطرابات السياسية أثناء المعارك التي دارت بين طائفتي عزبان والإنكشارية 1711م للسيطرة على منطقة القصر العيني والروضة، لذلك استولت جماعة الإنكشارية على جمال وحمير السقايين ومنع وصول المياه حتى تستلتم جماعة عزبان، وإيقاف وصول المياه إلى القاهرة برمتها، فوصلت قربة المياه خمسة أنصاف فضة[53].

([49]) Belon, Voyage en Egypte de pierre. Belon du Mans 1547, Caira, 1970 P.106

([50]) Jean Palerme Fordsien, Voyage en Egypte 1581, Cairo: Institut Francais D'Archrologie du Cairo, 1971, P59 .

([51]) أوليا جلبي: المصدر السابق ، ص 207.

([52]) نفس المصدر: ص 208 .

([53]) اندريه ريمون: فصول من التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية ، ص 110 .

هذا الحدث إن دل فإنما يدل على مدى الدور المحوري لطائفة السقايين والحمارين حتى في الجانب السياسي ناهيك عن حالات كثيرة من اضراب السقايين عن العمل حتى أصيبت البلاد بالشلل التام، عندئذ أدرك الجميع أهمية السقا أو سقا القربة التي يحملها فوق ظهره لمسافات كبيرة بين البئر وحتى يصل بها إلى داخل الحارات والأزقة داخل العاصمة، أو حتى من الآبار الجوفية داخل دروب الصحراء وطريق الحج – كما ذكرنا في موضع سابق – لذا فلا غروا أن نرى ديناميكية التلازم والارتباط الشديد بين طائفة السقائين والحماريين "المهمشون" والآبار.

- **خاتمة**

وهكذا أشارت الدلالات عند تناول الآبار وانتشارها في مصر في الحقبة العثمانية، إلى عدة نتائج هامة:

أولها: أن فكرة حفر الآبار فكرة ضاربة في القدم منذ فجر التاريخ الإنساني، وقد بدأها الصينيون، ثم انتقلت إلى باقي الشعوب و الجماعات البشرية المنتشرة داخل ربوع الصحاري، والمدن المطتظة بالسكان على حدٍ سواء.

ثانيها: انتشار الآبار في ربوع مصر قاطبة في الفترة العثمانية، وقد دلت حفريات الفسطاط على وجه الخصوص على مدى الكم الهائل من شبكات الآبار التي جابت ربوع المدينة وشملت الشوارع والدروب والأزقة والمنازل لتوفير مياه الشرب من هذه الآبار في أوقاتٍ كثير يضن فيها النيل عندما ترخى سدول الجفاف ربوعها على النهر وتجف ربوع البلاد، عندئذ يدرك الأهالي قيمة البئر الجوفي كطوق نجاة لهم من الجفاف والعطش.

ثالثها: إن الآبار لم تكن جميعها – كما يعتقد الكثيرين– خاصة بمياه الشرب وسقي الدواب، فأقرت الدراسة بوجود آبار ملحية وآبار استخدمت فقط كمراحيض للتخلص من مياه الصرف الصحي خاصة في القاهرة والمناطق المزدحمة بالسكان وأحياء

القاهرة المختلفة، على اختلاف درجة رقيها، كما صنفتها الوثائق في ضوء درجة الغنى والفقر ونوعية سكانها سواء من الأمراء و البكوات أو من عامة الشعب.

رابعها: تأكيد وثائق المحاكم الشرعية بجانب كتابات الرحالة أن الآبار شملت عدة مكونات أو ملحقات تابعة لها كالأحواض والصهاريج والسواقي بنوعيها سواء السواقي الأهلية – ملك للأهالي – أو السواقي السلطانية المملوكة للأمراء والبكوات المماليك، والتي أصبحت بمثابة حجر الزاوية للحصول على المياه من داخل البئر باستخدام ثيران البقر أو الجاموس.

خامسها: أن الإدارة العثمانية والتي تمثلت في شخص الوالي "الباشا" ومعاونوه من رجال الأوجاقات العثمانية والأمراء والبكوت المماليك والقضاه ومعاونيهم، قد انصب اهتمامهم بحفر الآبار وصيانتها وترميمها وتوفير العلوفيات الخاصة لثيران السواقي، وقد أصدرت في هذا الشأن العديد من البيورلدات "الأوامر" لعمارة الآبار لضمان توفير المياه.

سادسها: ألقت الدراسة الضوء على فئة هامة ارتبط اسمها باسم الآبار، نعني السقائين والحمارين، ودائماً ما كانت النظرة إليهم نظرة دونية حتى وصفوا "بالمهمشين". لكن من خلال ابراز دورهم المحوري الذي لعبوه من توفير المياه خاصة في فترة الإضطرابات والقلاقل السياسية كفتنة العزبان والإنكشارية – كما رأينا– وضح مدى حساسية ومحورية دورهم وقت الأزمات.

- **قائمة المصادر والمراجع**

أولاً: الوثائق:

أ- دفاتر الروزنامه:

- دفتر مال وارد الخزينة العامرة من أقلام سنة 1111 هـ ، روزنامة 2111 ، رقم الحفظ السنوي 6 ، مخزن تركي 1 ، عين 29 .

ب-حجج الأمراء و السلاطين بدار الوثائق القومية بالقاهرة:

- حجة وقف الجمالي محمد عبد الله ، رقم 303 بتاريخ 18 رجب 1007هـ.

ت-سجلات الديوان العالي :

- سجل رقم (1) .

ث-سجلات المحاكم الشرعية:

1- محكمة مصر القديمة: وتشمل سجلات(94-98-100-101-102-103-104-105)

2- محكمة قوصون : وتشمل سجلات (285-290-304) .

3- محكمة القسمة العسكرية : سجل رقم 56 .

4- محكمة الزاهد: سجل رقم 669 .

5- محكمة طولون : سجل رقم 210 .

6- محاكم الدشت: سجل 123 لسنة 1034 هـ- سجل 151 لسنة 1043هـ.

7- محكمة إسنا: وتشمل سجلات (1-4-10-39-50)

ثانياً: المخطوطات :

- عبد القادر بن محمد الجزيري : درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج و طريق مكة المكرمة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ 1570 ميكروفيلم 35749-ج1 .

ثالثاً: المعاجم :

- المعجم الوجيز: طبعة وزارة التربية والتعليم، 1993 م .

رابعا: المصادر العربية:

1- القرآن الكريم .

2- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج5 ، ط2 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1961 م .

3- أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ترجمة محمد علي عوني، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003م.

4- استيف : وصف مصر ، ج5 ، مكتبة الأسرة ، 2002 م .

5- المقريزي : الخطط المقريزية ، ج4 ، مكتبة الأداب ، 1996م .

6- جومار : وصف مصر" مدينة القاهرة وقلعة الجبل"، ترجمة وتقديم أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 م .

7- جيرار : وصف مصر ، ج4 ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الأسرة ، 2002م.

8- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، ج6، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1987م.

9- محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدي و الرشاد في سيرة خير العباد ، المكتبة الإسلامية ، ج7 (د.ت) .

10- يوسف بن الوكيل الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، 1998 م .

خامساً: المصادر الأجنبية :

1- Belon, Voyage en Egypte de Pierre. Belon du Mans 1547. Caira, 1970.

2 - Jean Palerme Fordsien, Voyage en Egypte 1581, Cairo: Institut Francais d'Archrologie du cairo, 1971 .

سادساً : المراجع العربية و المعربة :

1- اندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات و النشر، القاهرة ، ط1 ، 1994 م .

2- ـــــــــــ : فصول من التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1974 م .

3- ايمن أحمد محمد محمود: خليج الإسكندرية وآثاره الإقتصادية والإجتماعية والعمرانية في العصر العثماني، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.

4- عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني في مصر في القرنين 16، 17، ط1، 1996 م.

5- علي بهجت وألبير جبريل: حفريات الفسطاط ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1928م.

6- محمد محمد أمين : المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (648-923 هـ / 1250-1517 م) دار النشر بالجامعة الأمريكية ، ط1 ، 1990م .

7- محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج4 ، 1994م.